الفصل الخامس
دولة تيمورلنك فى آسيا الوسطى

أوضاع ما وراء النهر وقت ظهور الأمير تيمور

فى تقسيم البلاد التى استولى عليها جنكيز، صارت بلاد القراخطائيين السابقة وما وراء النهر نصيب ابنه جغتاى، ولم يعص جغتاى اوكتاى وقت خانيته للمغول رغم أنه الأكبر سنابل كان يصدق على خانيه اوكتاى عليه وعلى بلاده وكان يدير بلاده بعون من واحد رؤساء قبيلة البرلاس وهو قراجار نويان ويصل مؤرخو تيمور نسب هذا الفاتح إلى الأمير قراجار نويان البلاسى من ناحية الأب ويعتبرون قراجار الجد الخامس لتمور.

حكم أولاد جغتاى الذين تسمى بالخانات الجغتائيين أو حكام البلاد (اولوس) الجغتائة مدة سنة وثلاثين ومائة عام (من٦٢٤ حتى ٧٦٠هـ/ م) على بلاد ما وراء النهر وقسم من خوارزم وكاشغر وكانت عدتهم نحو الثلاثين وكان من بينهم خانات من أولاد اوكتاى تصادف حكمهم للبلاد الجغتائية وليس لهم ذكر خاص فى تاريخ إيران اللهم إلا بضعة نفر منهم هاجموا إيران فى أيام الايلخانات عن طريق الدربند أو خراسان مثل براق أول خان للبلاد الجغتائية آثر الإسلام دينا لكن رعاياه لم تحبذ عمله هذا فعادت أكثريتهم لديانتها بعد موته.

ودخل الإسلام أحد خلفاء براق وهو (ترمشيرين) (٧٢٢ - ٧٢٧هـ/ م) أكثر الرعايا الجغتائية الإسلام، وأصبح الإسلام من هذا الوقت الدين الرسمى لخانات ما وراء النهر ومغولها.

وفى أوائل النصف الأول للقرن الثامن أصاب خانات الجغتائيين الوهن والضعف وتحكم منهم أحد رؤساء قبيلة البرلاس واسمه الأمير قزغن وكان الأمير (قزغن) هذا يولى ويعزل من يشاء من خانات الجغتائيين وكان لابنه الأمير عبد الله من بعده نفس النفوذ والمنصب إلى أن تمكن من قتل الأمير (حاجى برلاس) من أحفاد (قرجار نويان) والأمير (بيان سلدوز) يعاونه الخان تحت حمايته واستحوذا

على الأمر لكنهما لم يستطيعا إدارة الأمور كما ينبغى فصارت ما وراء النهر رهن الهرج والمرج وثارت الثورات والقلاقل.

وقد حرض وصول أبناء ثورات ما وراء النهر إلى كاشغر حيث كانت شعبه أخرى من خانات البلاد الجغتائية تباشر أمور الحكم (تغلق تيمور) حاكمها وكان من أحفاده (براق خان) على غزو ما وراء النهر وهاجمها تغلق تيمور أحداهما فى عام (٧٦١هـ/ م) والأخرى فى (٧٦٣هـ/ م) وقتل فى المرة الثانية الأمير بيان سلدوز وسيطر على بلاد ما وراء النهر وأناب ابنه الياس خواجة فى إدارة أمورها، فظل يحكمها حتى (٧٦٥هـ/ م) حين طرده عنها (تيمور الكوركانى) والأمير حسين حفيد الأمير قزغن.

أصل تيمور ونسبه:

تيمور ولد الأمير ترغاى أوكوغاى، وهى كلمة تركية بمعنى طير، أما تيمور فهى من تمر أو دمر التركية بمعنى الحديد وأصل المؤرخون نسبة إلى أسرة جنكيز وصحة هذا الادعاء غير معلومة حتى أن هناك شكاً فى أن الأمير (قراجار نويان البلاسى) جده الخامس. ولد تيمور فى شعبان (٧٣٦هـ/ م) اشهر فى إحدى قرى مدينة كش (مدينة سبز) الحالية جنوب سمرقند على مفترق الطرق بين هذه المدينة وبلغ وعاش أيام صباه بين قبيلة البرلاس التى كانت أقرباء لأجداده وأتقن فنون الحرب الشائعة عند القبائل الصحراوية وبين أفرادها وهى عملهم الرئيسى من رسوم الصيد والفروسية ورمى السهام حتى غدا فارسا ماهرا للسهام بطلا، وكان عالى الهمة طموحا فلم يقنع بذلك وخطا فى طريق العلو والرئاسة.

ذكر أن جد الأمير تيمور كان يظهر كامل إخلاصه للصالحين والفقراء وظل هذا الميل لهذه الطائفة فيه وفى أسرته فكان من أول أمره يبدى الإخلاص للزهاد ومشايخ التصوف وكان يأتيهم ويطلب منهم المدد.

وحياة الأمير الأولى غير معروفة على وجه الدقة، وما يقرب إلى اليقين أنه لم يحدث فى هذه الفترة المبكرة من حياته شىء ذو بال لأنه كان ذا ذاك مغموراً ويحيا حياة أفراد قبيلته العادية لكى يهتم بإثباتها مؤرخ، وإنما بدأت أحداثه التاريخية فى الذكر عام (٧٦١هـ/ م).

ففى عـام (٧٦٢هـ/ م) حينما قام تغـلق خان الأول مرة بغزو مـا وراء النهر كان الأميـر تيمور فى خدمة الأمـير حاجى برلاس فلما هرب الأميـر حاجى أمام تغلق إلى خراسان كان تيمور برفقتـه أيضاً وبعد مدة وجيزة آب تيمور إلى ما وراء النهر ولحق بخدمة تغلق تيمورخان، وترك خان الكاشغر حكم مدينة كش التى كان رؤساء البرلاس يتـوارثونه إلى تيمور وحينما عـاد تغلق تيمور إلى كاشغـر استقل بحكمه وبعد قليل بسط سلطانه على أغلب بلاد ما وراء النهر.

وفى هذه الأيام استـعان الأميـر حسين القزغنـى بجماعة من أمـراء ما وراء النهر الأقـوياء فهزم الأميـر (بيان سلدوز) وكان ينقم علـيه قتله عمـه الذى أصابه الحزن فانهـزم بيان إلى بدخشان فـاختارت هذه الجمـاعة من الأمراء الأميـر حسينا لإمارة ما وراء النهر ونصب كل منهم على حكم ناحية منها تحت إمرته واستقر من ضمنهم الأمير على حكم كش مقر أجداده وفى هذا الحين زوج الأمير أخته بتيمور مؤثره لمصاهرته فسمى تيمور كوركان أى تيمور الصهر.

وبما أن أوضاع مـا وراء النهر أقـترنت بعدم الأمن وكـان الأمراء المتـمردون دائمى الخلافات أحدهم مع الآخر غزا (تغلق تيمورخان) هذه البلاد مرة أخرى فى (٧٦٣هـ/ م) وقتل الأمير بـيان وجعل الأمير حسين يفـر وترك حكم ما وراء النهر إلى ابنه إلياس خواجة وبقى تيمور على حال حكمه لكش.

وبعد فترة تحالف الأمير تيمور حـسين المتوارى بقصد الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر متـعللاً بمظالم التابعين لإلياس خواجـة وهاجم خوارزم لكنه غلب على أمره فركن إلى الفرار إلى خـراسان وبعد أن أسره التركمـان ساكنوا ابيورد وعودته إلى سمرقند وحياته متخفياً بها عـاد أخيراً إلى خراسان وانضم ومعه الأمير حسين إلى خدمة الملك معز الدين حسين كرت.

ولما طلب تغلق تيمور إلى معز الدين كـرت تسليمه هذين الأميرين هربا إلى قندهار زمناً ومنها إلى سيستان فاحتال واليها وهاجمهما وأثناء قتالهما أصيب تيمور بعدة طعنات منا فى عقب قـدمه وكتفه اليـمنى وفقد الإصبعين الآخـرين من كفه الأيمن وأصيبت قدمه اليمنى بضربة ألم ترجعها بعد ذلك إلى حالتها الطبيعية فكان يمشى طوال عمره عارجاً فسمى لذلك بتيمور الأعرج (لنك).

وبعد أن التأمت جراح تيمور أخذ هذا الأمير وحسين القزغنى بعد أن جمعا الجنود والأتباع بلاد تزمد وبلخ وبدخشان وكش من أيدى عمال إلياس خواجة، وتقوى قلباهما بعد أن تناهت إليهما أنباء موت تغلق تيمور وعزم إلياس خواجة ابنه على العودة إلى كاشغر فهاجما الأخير وهزماه وسيطر على ما وراء النهر. ومع أن إلياس انتقم منهما لهذه الهزيمة فى (٧٦٥هـ/ م) واجبروهما على الفرار إلى بلخ إلا أنهما عادا فى (٧٦٦هـ/ م) فاستوليا على ما وراء النهر وقطعت يد الأتراك الجغتائيين تماماً عن هذه البلاد.

وبعد الاستيلاء الأخير على ما وراء النهر وقع الخلاف بين الأمير حسين وتيمور ووافى زوجة تيمور وأخت الأمير حسين فى ذياك التاريخ أجلها فأنبتت قرابة النسب بينهما فأعلن تيمور مناهضته لحسين وجرد جنده يهاجمه فخانه بعضهم مما أجبره على الفرار إلى ابيورد وظل الصراع بين الأميرين قائماً حتى (٧٦٩هـ/ م) إلى أطمأن بعض علماء طقشقند وخجنده للأمير فاصطلحا. ولم يدم هذا الصلح إذ بدأ أحدهما يسىء الظن بالآخر حتى سلم الأمير حسين تماماً إلى تيمور فتخلى عن الرئاسة والقيادة بشرط الإبقاء على حياته فتظاهر تيمور بتأمينه وانفض أمراؤه فى أطراف بلخ فى أوائل رمضان من ذلك العام على حسين ولديه فأهلكوهم وصارت ما وراء النهر تحت سيطرة تيمور بلا منازغ. ودخل تيمور فى الثانى عشر من رمضان سمرقند (٧٧١هـ/ م) وكون مجلس شورى من الأمراء والكبار والعلماء، ومع أنه لم يلقب بالسلطان ولقب أحد أمراء البلاد الجغتائية وهو (سيور غتمش) بالسلطان لكن رمضان (٧٧١هـ/ م) يعد بداية استقلال الأمير تيمور.

غزو خوارزم (٧٧٣هـ - ٧٨١هـ/م):

كانت خوارزم فى تقسيم البلاد الجنكيزية نصيب جوجى وخلفه عليها أولاده واستولى الحكام الجغتائيون عليها بعد ذلك وضموها إلى أملاكهم.

ووقت استقلال تيمور وجلوس سيور غتمش خان استولى من يسمى حسين الصوفى من قبيلة القنفرات على خوارزم. فأرسل تيمور له ليترك هذا البلد التابع لديوان الحكام الجغتائيين إلى وارثهم سيور غتمش فلم يقبل الصوفى فاضطر إلى مهاجمة خوارزم.

وغزا تيمور خوارزم أربع مرات بين عامى (٧٧٣هـ) و(٧٨١هـ) وغلب فى الأولى حسين على أمره ومات حسرة فترك تيمور حكماً إلى ابن حسين فعصى الابن بعد مدة وقدم إليه وادخله طاعته. والمرة الثالثة وقعت (٧٧٧هـ) والرابعة (٧٨٠هـ) وفى الأخيرة أخذ تيمور خوارزم بعد حصار ثلاثة أشهر ونصف أوائل (٧٨١هـ) وخربها ثم ضمها إلى بلاده.

غزا أرض المغول وصحراء القبجاق فى (٧٧٦هـ - ٧٩هـ):

غزا تيمور بين غزواته لخوارزم شرق ما وراء النهر وشمالها الشرقى أى كاشغر وأرض المغول وصحراء القبجاق مراراً فلما مات تغلق تيمور تسلط أحد أمرائه الأقوياء وهو قمر الدين دوغلات على الأمور واستبد بالحكم فى كاشغر فأفاد تيمور من هذا وأخذ يعير من (٧٧٦هـ) حتى (٧٧٩هـ) على جنود قمر الدين وملكه كلما أمن جانب خوارزم وهزم قمر الدين بضع مرات وألجأه إلى الصحراء القبجاق. وفى (٧٨٧هـ) سيطر على صحراء القبجاء أى المنطقة بين سيحون وبحيرة خوارزم وبحر الخزر وأناب عليها أميراً من أسرة باتو اسمه (توقتمش) وعاد إلى سمرقند.

غزوات تيمور على خراسان فى (٧٨٢ - ٣) و(٧٨٤ - ٥هـ):

ولما مات الملك معز الدين كرات الذى كان على مودة دائمة وصفاء تيمور غير ابنه غياث الدين بير على سيرة ولم يحضر مجلس الشورى الذى عقده تيمور فى رمضان (٧٧١هـ) بسمرقند. وفى (٧٧٨هـ) أرسل تيمور إلى غياث الدين بينما كان يغزر خوارزم ليذكره بالمودة القديمة بينه وبين ابنه، فاستقبل غياث الدين رسوله هذه المرة بترحاب واحكم تيمور أساس المودة بين الأسرتين بتزويج غياث الدين ابنة أخته.

وفى (٧٨٢هـ) اضطربت أوضاع خراسان على نحو ما رأينا فى تاريخ السربداريين شديد الاضطراب وأخذ شاه شجاع وشاه منصور والأمير ولى وغياث الدين والخواجة على بالمؤيد فى الكر والفر فى هذا البلد، فاهتبل تيمور هذه الفرصة لضمه، ولما أطمأن قلبه من ناحية خوارزم نهائياً سير أول صيف (٧٨٢هـ) ابنه مير أنشأه ذا الأربع عشرة سنة بعده من كبار أمرائه إلى خراسان ولحق بهم

وبعـد أن غلبوا جنود غـياث الدين كـرت فى نيـشابور توجـه إلى هراة عن طريق خواف. وبدأ فى منتصف ذى الحجـة بحصار فوشبخ (غوريان الحالية) فـفتحها ثم فتح هراة أيضاً بعد حصار دام أربعة أيام وأسر غـياث الدين وعفا عنه وبعد اغتنامه خزائن مـلوك الكرت أتى إلى نيشـابور وسبـزوار. وفى هذا المكان أتى على المؤيد السبدارى خدمة تيمور وقدم الأمـير ولى المستولى على جرجان فى تلك الأيام إليه مطيعاً أيضاً فعاد إلى بخارى وبهذا انتهت الغزوة الأولى له لخراسان.

وبينما كـان الأميـر تيمور فى مـصيفـه على حدود بخارى أتـاه أتباع لعلى السربدارى وأخـبروه أن الأميـر ولى ورئيس التركمـان فى ابيورد ونسا مع قـبولهم طاعته اتفقوا على مهاجمة سبزوار فنهض تيمور فى آخر شتاء (٧٨٤هـ) لعون على السربدارى إلى خراسان وغالف قلعة كلات معـقل رئيس التركمان وفتحها ثم ألحق بها قلعـة ترشيز التى استـولى أحد عمال بنى كـرت عاصياً بناء على طلـب غياث الدين الذى كـان فى ركب تيمـور، وفى هذا المكان وصل كتـاب من شاه شـجاع فحواه إيداع أولاده إليه فأجابه تيمور جواباً مطمئناً.

وارتحل تيمور من ترشيز إلى مازندارن فطلب الأمير ولى الأمان منه فعاد إلى خراسان واحتفظ بغياث الدين وأخيه وابنه من ذلك المكان حبيسين أمام ناظريه فلم يسمح لهم بالعودة إلى هراة، واصطحبهم مـعه إلى سمرقند وأناب فى هراة عمالاً من قبله.

وفى (٧٨٥هـ) تمر أهل هراة على نواب تـيمـور فبـعث بابنه مـيرانشـاة من خراسان لقتالهم وجاء بنفسه فى عقبه وأعمل التيموريون الذبح فى الهراتين وأقاموا من جماجمهم منارات. وعند سماع تيـمور بثورة أهل هراء أخذ الغضب منه مبلغاً حتى أنه أمر بقتل غياث الدين وأخيه وابنه فى سمرقند وفى خريف (٧٨٥هـ) قصد هراة وأقام يقـتل فى أهلها ثانية ويصـادر أموال هؤلاء المساكـين وبعد أن سكن نار غضبه سلمت له سيستان وبست أيضاً حتى حدود سيستان فعاد إلى سمرقند.

الاستيلاء على مازندان واستراباد فى (٧٨٦ - ٧٨٧هـ):

كانت مـازندان حتى عام (٧٥٠هـ) فى يد طبقـة من ملوك باوند من الأمراء القدامى الإيرانيين وفى هذا الوقت أردى شخص اسمه (أفـراسياب التشلاوى) أخر أمير لهم قتيلاً وجعل من نفسه حاكماً له.

وفى أيام ظهور أفراسياب التشلاوى كان أحد السادات الحسينيين وهو السيد قوام الدين المرعشى (من أولاد السيد على مرعش من أحفاد الإمام على زين العابدين) موضع احترام الناس التام فى مازندان، ودخل أفراسياب هذا ضمن مريديه حلقته لعله يزيل من أذهان الناس قبيح فعله بقتل آخر ملك باوندى.

ولم يدم اتصال أفراسياب بقوام الدين لأنه بعد قليل ألقى به فى الحبس ولما أطلق سراحه زاد مريدو الشيخ عن ذى قبل. وفى النهاية هلك أفراسياب فى الحرب التى ثارت بينه وبين قوام الدين فى (٧٦٠هـ وصار قواد الدين حاكم مازندان وأسس أسرة تسمى بالسادات العلوية القوامية. وقد طوع قوام الدين بيد أولاده من عام (٧٦٠هـ حتى (٧٨١هـ) سنة وفاته شطراً هاماً من جيلان وفيروزكوه وكلارستاق ونور وكجور حتى هزار جريب وقزوين.

كان لقوام الدين أربعة عشراً ولداً ولما مات هاجم ابنه الأكبر السيد كمال الدين وخليفته استراباد وجرجان وهما ملك الأمير ولى غلب الأخير فى (٧٨٢هـ) وهزمه إلى خراسان.

وفى الغزوة الثانية لتيمور فى خراسان زين ابن أفراسياب التشلاوى لتيمور فتح مازندان انتقاماً لدم أبيه، وكان تيمور مستاء أيضاً من الأمير ولى فزحف إلى خراسان من بلاد ما وراء النهر للقضاء عليه والسادات القومية فى (٧٨٦هـ) وأتى منها كبودجامه (فيما حول أشرف أو بشهور الحالية). وغلب تيمور الأمير ولياً فى أحارش كبودجامه – وتعقبه فى الرأى. وفى ربيع (٧٨٦هـ) بلغ السلطانية لضمها وكانت لابن السلطان أحمد الجلايرى، وفى أواخر السنة استحوذ على قلعتها. وفى بدايات (٧٨٧هـ) تحرك تيمور إلى آمل وسارى فقدم كمال الدين مطيعاً إليه فأبقى مازندان لأولاده قوام الدين وعاد إلى سمرقند.

هجوم السنين الثلاث (٧٨٨ - ٧٩٠هـ):

لاذ الأمير ولى بعد هجوم جرجاى والرى بالفرار إلى أذربيجان ودخل طاعة السلطان أحمد جلاير، وبعد فترة أتى من طرفة إلى عادل آقا حاكم السلطانية يدعوه إلى طاعة السلطان الجلايرى ويغزو خراسان بعونه، لكنه لم يخرج بشىء من مهمته هذه فعاد إلى تبريز ونصب عليها من قبل الجلايرى.

وموافق هذه الأيام حمل توقتمش خان الذى أبلغه تيمور سلطنة صحراء القبجاق فيما سبق على تبريز عن طريق الدربند فاستلصها من يد الأمير ولى نهبها وعاد إلى صحرائه بعد فرتة من التقتيل والنهب ومات السلطان أحمد أثناء ذلك.

وحثت هذه الأنباء الأمير تيمور إلى التحرك إلى إيران فعبر جيجون (٧٨٨هـ) وقضى ثلاثة أعوام يقاتل ويذبح وينهب فى الولايات بعد شاطئ النهر المواجه لإيران وقد سمى المؤخون المعاصرون هذه الغزوة التى طالت ثلاث سنين بهجوم السنين الثلاث.

وقبل بلوغ تيمور خراسان استصفى عاد آقا بعون أمراء ميرانشاه ابن تيمور وجنوده همدان وألحق بها تبريز من يد أتباع أحمد جلاير وأسر (أمير ولى فى كرمرود) وأهلكه فوصل تيمور إلى مازندان على عجل وبعد أن جدد طاعته كمال الدين القوامى وعلى السرابداريين قصد لصد الملك عز الدين اللورى (٧٥٠ - ٨٠٤هـ) وأصيب فى الهجوم الذى قام به على خرم آباد على المؤيد الأمراء السرابداريين وهلك.

ولما سمع تيمور بعد أن أسر عز الدين أن أحمد جلاير آت من بغداد إلى تبريز وجه ابنه ميرانشاه إليها ثم توجه هو نفسه إليها كذلك. وخلى السلطان أحمد تبريز وكر راجعاً إلى بغداد فتملكها تيمور بلا منازع ثم ألحق بها فى ملكيته آخر صيف (٧٨٨هـ) أرمنيه واستولى على تفليس بهجمة واحدة ودعا ملكها لقبول الإسلام وجلب شروان أيضاً تحت تبعيته بإدخال أميرها طاعته.

وفى أوائل ربيع (٧٨٩هـ) أرسل توقتمش خان ثانية يجند له إلى أران وأذربيجان، فتعقبهم ميرانشاة بأمر من أبيه إلى الدربند واستأسر منهم كثيراً، وخلع تيمور عليهم جميعاً وأعادهم إلى توقتمش وذكره عن طريقهم بسوابق فضله عليه ودعاه إلى ترك الخلاف.

وبعد فتح أذربيجان والكرج وشروان أخذ تيمور مثل بايزيد العثمانى بلاد آرمنية وأرزنة الروم وارزنجان أيضاً وبعث ميرانشاه يتعقب قرا محمد القراقويونلو رئيس تراكمة وان وبايزيد فهرب قرا محمد وفتح تيمور مدينة وان أيضاً بعد حصار سبعة وعشرين يوماً وعاد إلى آذربيجان.

وفى بداية هجوم السنين الثلاث راسل تيمور سلطان زين العابدين ولد شاه شجاع وخلفه يستدعيه إليه بموجب الوصية التى أودع بها شاه شجاع أولاده إليه، فلم يأبه زين العابدين بطلبه ولم يدع مبعوث يعود، فغضب تيمور لهذا وقدم أصفهان لتأديبه عن طريق همدان وكلبايكان. وطلب علماء أصفهان أمان تيمور وتعهدوا بأداء مال إليه.

فقبل تيمور وأرسل بعض أمرائه إلى داخل المدينة لتحصيل المال، فأنزل هؤلاء الأمراء فى جمعهم المال أذى كثيراً بأهل أصفهان ولم يرعوا فى انتهاك حرمات أهلها.

فثأر الناس وقتلوا محصلى تيمور ونوابه فى جمع المال بأسوأ حال وقامت ثورة عظيمة بالمدينة. وهاجم تيمور أصفهان وقت الغروب وظل يقاتل أهلها حتى صباح اليوم التالى فلما أدخل أصدر أمره بذبح أهلها وأمر فجمع له سبعون ألف جمجمة فأقام منها هذا السفاك منارات من الجماجم بحيث أقيمت فى نصف قلعة أصفهان ثمان وعشرون منارة من ألف وخمسمائة رأس وفى النصف الآخر أقل قليلاً خلاف المنارات خارج القلعة.

وبعد واقعة أصفهان الأليمة عزم الأمير السفاك الكوركانى إلى شيراز وهرب زين العابدين المظفرى كما مر منها فزعاً وأعتصم بشوشتر لدى شاه منصور فحبسه بها. وفى أواخر (٧٨٩هـ دخل تيمور شيراز بلاأى، ولما وصلت مسامعه أخبار عصيان توقتمش خان فى هذا الوقت قام بتقسيم البلاد المضفرية بين شاه يحى وعماد الدين أحمد أبى إسحاق حفيد شاه شجاع وعجل إلى سمرقند.

الصراع بين تيمور وتوقتمش (٧٩٠هـ):

فى أيام هجوم السنين الثلاث قصد قمر الدين دوغلات إلى توقتمش لينتقم لهزائمه السابقة فأوعز إليه أن يجعلا بلاد تيمور من الناحيتين موضع هجومها.

وهاجم قمر الدين من ناحية فرغانة وتوقتمش من جهة بخارى بلاد ما وراء النهر فى (٧٩٠هـ وثار أهل خوارزم بتحريض توقتمش على أتباع تيمور. أما قمر الدين فقد لقى الهزيمة من عمر شيخ ولد تيمور ولما سمع برجوع تيمور هرب إلى صحراء القبجان فبلغ تيمور خوارزم وقام بتخريب هذه المدينة إلى حد أنه لم يكن

فيها حـائط يستراح تحت ظله وزرعوا الشعير فـوق أطلالها ولم يسكنها واحد إلى عام (٧٩٠هـ) مـات سيـور غتـمش خان الذى اخـتاره تيمـور فى (٧٧١هـ) على سلطنة ما وراء النهر وجعل الأمير الكوركانى محمود خان ولد سيور غتمش حاكماً بعد أبيه مراعاة فيما يبدو لحقوق أولاد جغتاى.

وفى شتاء (٧٩١هـ) هاجم خان مرة أخرى ما وراء النهر لكنه هزم أيضاً من عمر شيخ وتعقبه تيمور حتى أرض المغول وصحراء القبجان وعاد إلى سمرقند بعد غزو وقتـال فيهمـا وتحرك فى منتصف صفـر (٧٩٣هـ) إلى صحراء القبـجاق بعد الاستعداد لهجوم قاطع وفى الخامس عشر من رجب لنفس العام أنزل على شاطئ اتل (الفولجـا) الأيسر بتوقتـمش هزيمة فادحة وعـاد إلى عاصمتـه بغنائم وأسرى كثيرين.

هجوم السنين الخمس (٧٩٤ – ٧٩٨هـ): ولما عاد تيمور من صحراء القبجاق أناب ابنه ميرانشاه فى حكم خـراسان وحفيده «بيرمحـمد» فى حكم غزن نوكابل، وبعد خلاصـه من مرض شديد أصابـه قصد إيران فى رمضـان (٧٩٤هـ) لإخماد الثورات التى شبت بها وظل يقـاتل فيها خمسة أعوام وتسـمى حروبه هذه بهجوم السنين الخمس. وأتى تيمـور أولاً إلى جارجان ومازندان وكان السيـد كمال الدين القوامى قد آثر العصـيان فغلب تيمور جنده وأرسل بالسيـد فى سفينة إلى خوارزم وبعد قـضاء الشتاء بمازندان اتجـه فى صفر (٧٩٥هـ) إلى شوشـتر عن طريق الرى والسلطانية وكرهورد (سلطان أباد العراق) وفرشـاه منصور المظفرى من أمامه وكان استقبل بشوشتر فى ذلك الوقت صوب شيراز فذهب تيمور فى أثره إليها.

وأورد تيمور كمـا مر بنا فى تاريخ شاه منصور بالأمير الـشجاع المظفرى فى حرب ضـروس قرب شيارز مـورد الهلاك وأدرك أسرة آل المظفـر وترك فارس إلى عمر شـيخ وعاد إلى أصفهان. وبعد عـدة أيام من إقامته بها توجـه إلى أذربيجان وعراق العرب لمقاتلة السلطان أحمد جلاير وقراقويونلو.

وتمكن تيـمور من قـرا مـحمـد والآق قويونلويـة فهـزم بشدة وفى شـوال (٧٩٥هـ) تحرك تجاه بغداد.

وأخلى السلطان بغداد ولم يكن يطيـق مقاومة تيمـور وهرب إلى الشام ويم

تيمور إلى فتح قلعة تكريت التى صارت وقتها عش فساد لعابرى السبيل والقوافل ففتحا بعد لأى شديد وجعل من رؤوس المدافعين عنها منارات، وبعد أن أدخل طاعته واسطا والبصرة سلط طريق الجزيرة. وفى هذا السفر أصاب سهم قاتل فى ربيع الأول (٧٩٦هـ) عمر الشيخ أثناء قدومه لملاقاة أبيه على بعد أربعة منازل من بغداد من سهام أهل هذا المكان، فأرسل تيمور بابنه بير محمد خلفا لأبيه إلى حكومة فارس.

وغفى هذا السفر الذى بدأ فى ربيع الثانى (٧٩٧هـ) أنزل على ضفاف نهر (ترك) فى شمال القفقازنة بتوقتمش هزيمة ثانية وترك فى عقبه ولايتى الشركس والقزاق ودخل روسيا واستولى أيضاً على مدينة (موسكو) وبعد إغارته عليها رجع إلى آذربيجان. ثم عمل على إخماد الفتن التى شبت فى غيابه فى نهاوند وسيرجان ويزد وآذربيجان إلى ميران شلاه وقصد إلى سمرقند فى شوال (٧٩٨هـ) وحول فى السنة التالية حكم خراسان وهراة كذلك إلى شاهرخ ابنة الثانى.

فتح الهند فى (٨٠١هـ):

عاد تيمور من هجوم السنين الخمس وكان أول ما فكر فيه بعد ذلك أن يزول الخطأ والفتن أى ما وراء كاشغر والصين الأصلية، لكن لا يعرف لماذا قدم على هذا الغزو فتح الهند فى هذا الآن، ووصل إلى كابل بنية جهاد ذلك البلد فى غرة ذى الحجة (٨٠٠هـ) وبعد قتال مع الأفغانيين فى جبال سليمان عبر وادى خيبر ثم عبر السند أوائل (٨٠١هـ).

وكان حكم السند والبنجاب فى هذا الحين للسلطان محمود الثانى من ملوك التغليقين أو أسرة أبناء محمد تغلق وكان مقره مدينة دلهى.

لما عبر تيمور نهر السند بدأ بحصار قلعة (بطنيرؤ) من قلاع البنجاب الهامة وبعد ستة أيام اجتاحها فى السابع والعشرين من صفر وقتل نحو عشرة ألاف من الهنود ثم اتخذ سبيله إلى دلهى.

وتواجه جيش تيمور والسلطان محمود فى السابع من ربيع الثانى (٨٠١هـ) فى (بانى بت) على مقربة من دلهى، فى هذه المعركة التى كان النصر الكلى فيها لتيمور قتل نحو مائة ألف من أهل الهند بيد جنوده وهرب السلطان محمود إلى

دلهى ودخلها تيمور فى العاشر من ذلك الشهر وأخذ جنوده ينهبون المدينة ومكثوا بها خمسة عشرة يوماً. وحين بلغ تيمور أنباء ثورات نشبت بإيران عجل يترك دلهى فقسم بلاد آل تغلق بين قواده جيشه وعاد إلى سمرقند عن طريق أفغانستان.

هجوم السنوات السبع (٨٠٢ - ٨٠٨هـ):

حينما انقلب تيمور إلى سمرقند أنبئ أن ابنه سقط من على جواده فأصيب بارتجاج شديد فى مخه فصار يصدر عنه أمور شاذة ولهذا سلك الرعايا المغلوبون فى الكرج وأذربيجان والعراق طريق العصيان، فتأهب تيمور بحملة جديدة على إيران وبلادها الغربية وزحف إليها. وغزواته هذه التى تسمى بهجوم السبع سنوات هى آخر حروب له.

وكانت الخطوة الأولى فى هجوم الأعوام السبعة وصوله إلى تبريز وبعد تنبيه وبعد تنبيه حاشية ميرانشاه وندمائه وتنظيم أوضاعها قصد الكرج لقتال أهلها الذين استفادوا من الظروف التى جهدت فهاجموا أذربيجان. وبعد أن أوقف الكرجيين على حدودهم وهاجم بلادهم أخبر من آذربيجان أن السلطان العثمانى (بايزيد خان الأول) (٧٩٢ - ٨٠٨هـ) طلب من والى هذه البلاد المال والخراج. وتبادل الجانبان مراسلات يهدد فيها كل منهما الآخر وانتهت بتقديم تيمور أوائل المحرم (٨٠٣هـ) إلى سيواس من بلاد الروم، وبعد حصار عشرة أيام عصف بها واستولى على مدينة ملطية والسواحل الجنوبية للبحر الأسود أيضاً وترك هذه البلاد لجد التركمان الاق قويونلو عثمان البايندرى وعرج على الشام.

فى (٧٩٥هـ) أثناء هجوم السنوات الخمس حينما كان تيمور فى إيران وجه سفيراً من لدنه إلى سلطان مصر الملك الظاهر برقوق من المماليك البرجية يظهر له مودته، فاردى الملك الظاهر مبعوث تيمور قتيلاً واستأثر حارس أحد قلاع أرمينية عن عريق قرا يوسف بن قرا محمد وأتى به إلى مصر وألقاه بالسجن.

فلما فتح تيمور ملطية أرسل آل يولد وخلف الملك الظاهر الملك الناصر فرج (٨٠١ - ٨٠٨هـ) رسلاً يطلبون إطلاق سراح قائد القلعة المحبوس، فلم يبال الملك الناصر بدعوة تيمور كما فعل أبوه من قبل بل وأودع رسله السجن، فلما بلغ تيمور هذا الخبر ركبه الغضب حتى أنه عد الحملة على الشام ومصر أهم من تعقب

السلطان العثمانى، فتقدم من الجزيرة إلى حلب مباشرة وفى التاسع من ربيع الأول (٨٠٣هـ) بلق قمة هذه المدينة وفتحها فى الحادى عشر منه وأغار على المدينة ونهبها وسلط طريق دمشق بعد مكث خمسة عشر يوماً.

وكانت دمشق إذ ذاك مركز معسكر الملك الناصر وبلغ هذا السلطان بجيش كثيف من مصر دمشق بطلب أهل الشام. ولم يكن بالند للأمير تيمور فبعد حرب قصيرة هرب من الشام آل يمصر فسلم أهل دمشق لتيمور خوفاً من الذبح، فأمنهم تيمور وبعد قليل أمر بنهب دمشق مركز النفائس وسوق الثروة والأمتعة القيمة متذرعاً بأسباب غير وجيهة فقامت فيها فتنة عظمس أصاب فى نتيجتها هذه المدينة الجميلة وأهلها ضربات شديدة.

وبعد فتح الشام عاد تيمور إلى العراق ليقتلع جذور فساد السلطان أحمد جلاير الذى لم ينغلب إليه تماماً وكان دائم الظلم والجور لرعاياه وليضم عاصمته بغداد إلى بلاده.

فى أيام انشغال تيمور فى الهند وغزواته فى بلاد الكرح وسيواس والشام وفق أحمد جلارى بمؤازرة قرا يوسف التركمانى فى أن يستعيد الجزيرة وبغداد لكنه كان كثير الظلم فطرده رعاياه عن بغداد فارتحل السلطان أحمد إلى الموصل وعاش بها مع قر يوسف نحن حماية السلطان العثمانى بايزيدخان.

هاجم تيمور بغداد مع مقاومة واليها الشديدة فى السابع والعشرين من ذى القعدة (٨٠٣هـ) وأمر انتقاماً لقتل بضعة نفر من قواده كانوا قد قتلوا أثناء حصارها بأعمال الذبح فيها إذ جعل كل جندى فى جيشه البالغ عشرين ألفاً يضرب عنق بغدادى ويعطيها إليه ففعلوا كما أمر وفى هذه الواقعة خرب كثير من الأبنية والمدارس والمساجد ببغداد.

ولما فرغ تيمور من فتح بغداد وسائر بلاد العراق شد رحاله إلى قرا باغ لتمضية الشتاء بها وهناك هيأ أموره للحملة على بلاد الروم وقتال بايزيدخان.

حرب أنكورية فى التاسع عشر من ذى الحجة (٨٠٤هـ):

بعد أن أعاد تيمور من العراق هاجم قرا يوسف التركمانى بغداد لكنه هزم من أبى بكر حفيد تيمور ووالى العراق فلاذ بالسلطان بايزيدخان وحرض السلطان على إيذاء الأمراء الأناضوليين الذين رضوا بحماية تيمور وتبعيتهم له. ولم يلق

السلطان بايزيدا فكراً لتقوية جيشه ولا بالا لمنع تيمور لإغتراره بفتوحاته السابقة فى الأناضول مع هزيمته فى سيواس والفرصة التى لاحت له عندما كان تيمور منشغلاً بحروب الشام والعراق، وكان منهمكاً فى الصيد والقنص حتى قبل المعركة بثلاثة أيام ولما انتوى الإسراع لصد تيمور هلك من جنوده نحو خمسة ألاف عطشاً نتيجة ما دبره تيمور إذ قطع عليهم طريق الماء.

وشبت الحرب فى التاسع من ذى الحجة (٨٠٤هـ) جنوب غربى مدينة أنكورية أو أنقرة (عاصمة تركيا الحالية) ودامت من الصباح حتى المساء فى حرارة الصيف، وأجبر السلطان بايزيد على الفرار مع استبساله فى المقاومة بسبب القيظ وهلاك جميع جيشه لكنه وقع فى الأسر فتلقاه تيمور بالاحترام واحتفظ به وظل السلطان فى جيش تيمور إلى أن وافاه أجله فى شعبان (٨٠٥هـ).

وبعد فتح الولايات الأناضول وصل تيمور حتى أزمير وشاطئ البحر المتوسط وهناك أتاه مبعوث الملك الناصر فرج الذى حل به الفرع لفتوحات تيمور وأظهر له تبعية ملكه للأمير صاحب العراق وقبل الملك الناصر من هذا الوقت أن يخطب لتيمور ويسك عملته باسمه.

وعاد الأمير تيمور بعد هذه الانتصارات إلى قرا باغ وبعد تمضية الشتاء فيها توجه إلى مازندران فحطم ثوارها وفى المحرم من (٨٠٧هـ) بعد سبعة أعوام عاد أدراجه إلى سمرقند.

وفى (٨٠٥هـ) أى فى الهجوم على بلاد الروم مات السلطان محمود خان بن سيور غتمش آخر بقية الحكام الجغتائيين والذى رفعه تيمور قبل ذلك إلى السلطة وكان يجالد بسيفه - أى تيمور - باسمه فى الظاهر أو قتل فى رواية أخرى بأمر تيمور. ولم يختر تيمور خانا فى محله وأمر أن تجرى الخطبة والسكة باسمه، ومن هذا الأوان أصاب تيمور فى الحقيقة مقام السلطنة.

موت تيمور فى السابع عشر من شعبان (٨٠٧هـ):

ولما عاد تيمور إلى سمرقند زوج بضعة نفر من أحفاده واحتفل سروراً بهذا الأمر وبالفتوحات التى صارت من نصيبه احتفالات طويلة وتأهب لمهاجمة الصين والتى كان فكرة فتحها تزاوده قبل غزوة الهند.

وبعد إعداد مائتى ألف شخص ومثلهم فرسان زحف تيمور ومعه بضعة من قواده وأحفاده فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى (٨٠٧هـ) صوب شاطئ سيحون. واتفق إن كان الشتاء فى ذلك العام شديد البرودة حين قام تيمور بقليل من مرض ألم به، فأصيب بالبرد فى (أترا) (فاراب القديمة) على شاطئ سيحون ولما كان إفراط فى شراب العراق سقط مريضاً فى حالة خطيرة وهناك حل به المنون فى السابع عشر من شعبان (٨٠٧هـ) فى سن الحادية والسبعين ودفن بها.

مع أن الأمير تيمور أحد أعظم الفاتحين والغزاة ومن القواد المحنكين المتدبرين وليس فى هذا ريب إلا أنه يقل نظيره فى القسوة والعنف والفظاظة والدهاء. ولا تصح مقارنته بجنكيز لأن جنكيز كما نعلم فصلاً عن جمعه الصفات اللازمة لتملك البلاد وفتحها يمتاز بصفتين الأمير تيمور خلو تماماً منهما الأولى صفة إدارة البلاد المفتوحة ورعاية العدالة والقانون والنظام والترتيب والثانية خلوه من التعصب الدينى وحياده فى مسألة الأديان والمذاهب عند الرعايا المهزومين فى حين أن أعذار تيمور فى غزوة الهند ونهب دمشق كانت أعذار دينية وكان يفرق فى تذبيحه للمهزومين بين المسلم والمسيحى.

وبعثت هاتان الصفتان الموجودتان فى جنكيز والمنعدمتان فى تيمور على أن تدوم دولة الأول خلاف دولة الثانى فترات بعد موت مؤسسها وأن يحفظ بلاد جنكيز البلاد الواسعة التى فتحها وامتدت من المحيط الهادى حتى البحر المتوسط فى كمال انتظام ونظام وترتيب تحت أمرهم نحو قرن فى حين أن دولة تيمور كانت كدولة نادر الأفشارى واحد من بعد تيمور ممن خلفوه أن يحافظ على هذه البلاد تحت نظام وإدارة سليمين.

قل اتساع البلاد التيمورية عن الجنكيزية بقليل لأنه إذا كان تيمور قد زاد عن بلاد جنكيز ضمه لبلاد الهند وجزءاً من روسية لكنه لعدم تمكنه من فتح الصين لم يصل اتساع ملكه إلى درجة وسعة البلاد الجنكيزية.

ولم يدع استبداد تيمور بالأمر وعدم اعتنائه بالأمور العادية لبلاده أن يبرز فى عهده وزراء عظام كأيام السلاجقة والايلخانات. أما من شغلوا فى أيام تيمور الوزارة والأعمال الديوانية الأخرى فقد كانوا مجهولين عد أغلبهم منشئين خاصين

بهذا الأمير ولم يشاهد منهم أى نوع من الكفاءة فى إدارة البلاد وقد أهلك أغلبهم تيمور نتيجة لأقل خلاف كان يصدر منهم.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com